شفيق حبيب
في
" أنـا الجـانـي "
التنوّع في بنائية النص الشعري

الدكتور يحيى زكريا الآغا
المستشارُ الثقافيُّ لسفارة فلسطين
الدوحة / قطر

ما بين عامي ١٩٧٢ وَ٢٠٠١ صدرَ للشاعر الفلسطينيّ أربعَ عشْرةَ مجموعةً شعرية، ملتصقةً بفلسطين، أرضًا، وسماءً، وتمثلُ في نفس الوقت إضاءاتٍ في الشعر الفلسطينيّ المعاصر، تعكسُ الواقعَ الفلسطينيَّ بكل همومه ومعاناته.

واليوم، يضيفُ زنبقةً جديدةً إلى مجموعاته السابقة، ليفوحَ شذاها على الوطن، رغم انبعاثِ رائحةِ البارود وهو يخترقُ أجسادَ الأطفال الذين يدافعون عن مستقبلهم، وآمالهم، وزيتونهم، وأرضهم.

أعترفُ أخي شفيق، مثلك اليوم بأنني الجاني على نفسي بطريقتي الخاصّة، عندما قبلتُ العملَ في الحقل الدبلوماسيِّ، لأنه صَرَفني عن ممارسة عِشْقي الأوحد، وهو الأدب الفلسطينيّ لأنه المنهلُ الوحيدُ لفكرٍ يجب أن يلتصقَ بالأرض، وليس هناك أعظمُ من شعرٍ يصدر من شاعر فلسطينيً، وخاصة أبناء المثلث والجليل، لهذا أصبحت مُقِلاًّ جدًا في الكتابة الأدبية، وكم كنت أتمنى رحلةَ العمر للوراء لأرفضَ ما عُرض عليّ، وأقفَ أمام السبّورة شارحًا لهم أدبَ القضيةِ الفلسطينيّة، أو درسًا في النحو العربيّ.

المجموعةُ الشعرية "أنا الجاني" وقصائدُها الواحدة والثلاثون، أضاءت لي دربًا حسبته أصبح مظلماً، وفتحتْ أمامي نافذة خلتها مُغلقة، فهبّت منها نسائمُ الوطن، لتوقظني من غفلةِ الحياة، وتهْديني إلى دروب المثلث والجليل، فما أن جاءَ الصوتُ الحبيب من " شفيق حبيب" عبر الهاتف ليهدي إليّ المجموعة الشعرية، قفزتُ طربًا، لدرجة أنها وصلتني نفسَ اليوم الذي أرسلت فيه من فلسطين.

الديوان بأقسامه الأربعة يتسِمُ بالوطنية، والشفافية، والإخلاص والوفاء، وهي عناصرُ مكوِّنةٌ للمجموعة ولذات الشاعر معًا، بل هي جزءٌ من وجيبه، مع ما يلفّ كل ذلك من الصِّدق الإنسانيّ، معتمدًا على هذه المكوّنات من بداية الجزء الأول "مَنْ ضيّعني؟"

مرورًا بـ" من رحلوا كبارًا " وَ " كلمات دافئة" وأخيرًا " من حقيبتي".

القصائد تمثل رافدًا ثرًّا وغنيًا من روافد العطاء المتجدِّد للشاعر، أكسبَهُ الكثيرَ من الخصوصية الأسلوبية، وإن كانت كثيرةٌ هي الروافد التي تصبُّ جميعُها في نهر واحد هو فلسطين.

إنَّ التجربةَ الجديدةَ للشاعر من خلال المجموعة تعكس تعدُّدَ وسائل التعبير عن تجربته، ولكن الأبرز هو التنوع في بنائية النصّ الشعري، حيث يفتتح بقصيدة خليلية تارة، ثم ينتقل إلى التفعيلة، وهكذا ينوّع الشاعر، مانحًا كلَّ تجربة ما يناسبُها إيقاعًا، وفكرًا، ووجدانًا، وهذا يسوقنا إلى استنتاج مُهمّ، بأن الشاعر أدرك أن التأثيرَ لا يقتصرُ على الإلقاء كما كان في الماضي، بل أصبحَ عن طريق القراءة التي تتطلبُ من الشاعر إدراكًا أوعى للصورة، وحِسًّا أعمقَ للمعنى، وتلاحمًا أوثقَ مع الكلمة، وهنا برزت وبشكل واضح في الديوان لغةُ التشخيص، والإيحاء، والرمز، للخروج من دائرة المباشرة، وهذا تطلب من الشاعر ـ كما نرى- لغة النغم الهادئ، مبتعدًا عن لغة الخطاب الصاخب، وصاحَبَ ذلك بحور الشعر البسيطة.

مَن يرجع إلى مجموعاته الشعرية السابقة، يلحظُ اعتمادَ الشاعر في كثير منها على لغةٍ صاخبة، سواء من إيقاع اللفظ،

أو تأثير المعنى، والفارق بينهما، لا يقللُ من مكانة الشعر والشاعر، لهذا اعتبرنا كما قلت في البداية، بأنها تجربةٌ جديدة، وأرجعها إلى تقديرات خاصة بالشاعر، يمكننا الاقتراب منها، ولكن في دراسة مفصلة أكثر عمقًا.

لم يكتفِ الشاعر بالوقوف على القضية المركزية، وهي القضية الفلسطينية بالنسبة له، ولجميع الشعراء الفلسطينيين، بل شقَّ الغبار عن وجه دجلة والفرات والنجف الأشرف، وبغداد والبصرة، معتبرًا بأن شمسَ الحرية ستبزغ من خلف غمامة سوداءَ قادمةٍ من الغرب، مذكرًا بتراث بغداد، وحضارة الرافدين التي تؤسِّسُ ولا تستسلم.

إن الصورةَ الجيدةَ في النص الشعري، هي التي تجعلنا نرى من خلفها الوجهَ الحقيقيَّ للمعنى، وهذا ما برز جليًا في جميع القصائد، ساعده في ذلك، تنويعُه في تبيان الصُّوَر الجزئية الحركية والصوتية والسمعية والحركية واللونية، حتى أننا نكاد نسمع بأن الكلمة تشي بجمالها.

وإذا كانت المتناقضات والمتضادات، جزءًا من الموسيقى الداخلية، لغة من البديع، فقد وظفها الشاعر بأسلوب مبدع، عكسَ قدرةَ الشاعر على تملكهِ لغةً شعريّةً جيدة.

القدس هي حجرُ الزاوية في المجموعة، وقد أضافت للمجموعة قيمة فنيّة، ووطنية متميزة، حيث يرسل من طرف خفي برسالة

تعكس خطورة ما يحيق بهذه المدينة المقدسة، التي ما فتئت تناجي عن قرب وبعد، علّ المترنح أمام الأبواب المغلقة، يصحو على صوت ينبلج في الظلام مناديًا " الله أكبر " ومتجاوبًا مع صوت أجراس من كنيسة القيامة يدعو "حيّ على الجهاد".

أطفالُ فلسطين، زنابقُ القبور... ينابيعُ المستقبل، لا مستقبلَ لهم في ظلِّ رصاص الغدر الذي يغتال شجر الزيتون، ليطفئَ قناديل الحقيقة عن ممارساتٍ تُرتكبُ ضدَّ البراءة والطهارة والحياة.
لكن الشاعر شفيق حبيب الأكثر حنقًا على الوضع المحيط عربيًا، هو أكثرهم تفاؤلاً بمستقبل سيكون باسمًا لأطفالٍ سيرسمون لوحة الحرية والنصر على حبة الزيتون والقمح.

وإذا كان الوفاء جزءًا من مكوِّنات الشاعر، فإننا نضيء شمعةً معه أمام ضريح الشهيد " فيصل الحسيني " وبذلك نكون قد عبَّدنا الطريق أمام فارس جديد كـ"فيصل" يكون مؤتمَنًا على القدس ومؤسساتِها التي انكمشت بعد رحيله في ساعة الظهيرة.

الشاعر ينقلنا كذلك في لفتة كريمة وفيّة لتأبين صديق عمره "توفيق العفيفي" والشاعر الكبير "شكيب جهشان" الذي كان لي شرف رثائهِ بإحدى الصحف المحليّة الفلسطينيّة.

أما الكلماتُ الدافئة التي أرسلها لسيادة/ المطران بطرس المعلم، والأم، وفيروز، تعكسُ أصالةَ الشاعر.

الشاعر ـ كما قلت ـ نمطٌ فريدٌ من المبدعين، حملَ لواءَ الكِلمة، فأصبحَ الجاني، وامتشقَ سيفَ العدل، فأصبحَ القاتل، وصرخَ بكلمةِ الحقّ، فكان رهينَ الجُدران الصّمّاء، لكنه كما قلتُ كطائر الفينيق، ينبعثُ من جديد.

ويبقى الديوانُ إضافةً جديدةً إلى لغةِ البَيان،
نهنئُ به أنفسَنا والشاعرَ، وفلسطين.

الدوحة / قطر : ٣٠-٥-٢٠٠٥

الاتحاد الحيفاوية : ٣-٦-٢٠٠٥